المقدسيّ وجغرافيّة سوريّة

في القرن العاشر للميلاد

المقدسي من افضل كتبة الجغرافيَّة بين قدماء العرب فنتَّخذهُ كمثال يوقفنا على ما بلغهُ اولئك الائمَّة من الكمال في هذا الفنّ واخصُّ ما نطلبهُ منهُ المعلومات التي اثبتها في كتابهِ عن سوريَّة وطنهِ كما عرفها في زمانهِ اعني في القرن العاشر للمسيح. وهذا ما حدا بنا الى ارصاد مقالةٍ خاصَّة للنظر في تأليفهِ

١

المقدسيّ وتأليفهُ

ليس المقدسي اوَّل من تولَّى وصف الشام لكنَّهُ يفوق على من تقدَّمهُ بوفرة معلوماتهِ وبحسن اسلوبهِ. والحقُّ يقال انهُ تحرَّى في عملهِ طريقةً نظاميَّة تجعل تأليفهُ في مقام رفيع

ولد شمس الدين ابو عبدالله محمَّد بن احمد بن ابي بكر البنَّاء نحو السنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) في القدس الشريف فدُعي لذلك بالمقدسي وهو الاسم الذي ندعوهُ بهِ اختصارًا في ما يأتي. وكان جدُّهُ مهندسًا بارعًا في الشام وهو الذي ابتنى ميناء عكا كما افادنا حفيدهُ اذ قال فيهِ (ص ١٦٢ و١٦٣):

« لم تكن (عكا) على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (طولون) وقد كان رأى صور ومَنَعتها واستدارة الحائط على ميناها فاحبَّ ان يتَّخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صنَّاع الكورة وعرض عليهم ذلك فقالوا: لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان. ثم ذكر لهُ جدُّنا ابو بكر البنَّاء وقيل: ان كان عند احد علمُ هذا فعندهُ. فكتب الى صاحبهِ على بيت المقدس ان ينهضهُ اليهِ. فلمَّا صار اليهِ وذكر لهُ ذلك قال: هذا امرٌ هيِّن عليَّ بفِلَق الجُمَّيز الغليظة. فصفَّها على وجه الماء بقدر الحصن البرّي وخيَّط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها

بالحجارة والشيد وجعل كلَّما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتدَّ البناء. وجُعلت القلَق كلَّما ثقلت نزلت حتَّى اذا علم انَّها قد جلست على الرمل تركها حولًا كاملًا حتَّى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك كلَّما بلغ البناء الى الحائط القديم داخلهُ فيهِ وخيَّطهُ بهِ. ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجرّ السلسلة مثل صور »

تعاطى المقدسيّ في اوَّل امرهِ التجارة وتجشَّم لذلك اسفارًا اعدَّتهُ للدروس الجغرافيَّة. وكان يشعر في قلبهِ ميلًا عظيمًا الى معرفة البلدان ولم يزل يقوى فيهِ ميلهُ الى أن انقطع الى ذلك الفنّ بتمامهِ فطاف كل بلاد الاسلام اللهمَّ الَّا السند والاندلس. ثم باشر نحو السنة ٩٨٥ تصنيف كتابهِ فبلَّغهُ كمالهُ بعد ثلاث سنوات. امَّا سنة وفاتهِ فلا تزال مجهولة وكذلك تفاصيل ترجمتهِ لا نعلم منها الَّا القليل مما اثبتهُ عن نفسهِ في مطاوي كتابهِ الذي دعاهُ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

ومن البديهيّ انَّ الكاتب أحكم القسم المختصّ ببلاد الشام مسقط رأسهِ فتوسَّع فيهِ. لكنَّ تأليفهُ كلهُ يستحقُّ الثناء. قال المستشرق غلدميستر (Gildemeister) « انَّ المقدسيّ قد امتاز بين بقيَّة ارباب اوصاف البلدان بكثرة ملحوظاتهِ وسعة نظرهِ (١ ». وقال سپرنغر (Sprenger): « ليس من سائح تجوَّل في البلاد كما تجوَّل المقدسيّ ولا احد لحظ ما لحظهُ او روى معلوماتهِ مثلهُ بنظام وترتيب ». وكذلك العلامة بربيه دي مينار (B. de Meynard) يعدُّ تأليفهُ ذا قيمة لا تُقدَّر (٢. وكل هذه الاقوال عين الصواب. امَّا حُسن الاسلوب فلهُ المقام الاوَّل فيهِ بين رصفائهِ السابقين والذين اتوا بعدهُ لم يبلغوا شأوهُ بل زادوا تقهقرًا. ومن تصفَّح كتاب المقدسيّ استحسن طريقتهُ في الكتابة فانك لا تراهُ يضيف الى عملهِ الاضافات النافلة والاستطرادات الزائدة كما يفعل ابن رُسته وابن الفقيه وكذلك لم يدخل في اوصافهِ تعداد المراحل او مبالغ الخراج على طريقة مملَّة شأن ابن خرداذبه في تأليفهِ. هذا فضلًا عن حسن نظر واصالة رأي مع ما يُبدي لوطنهِ من الحبّ الواجب دون ان يبخس حقوق بقيَّة البلاد

---

١) في المجلَّة الفلسطينيَّة الالمانية (ZDPV, VII, p. 143)

٢) اطلب المجلَّة الاسيويَّة (JA, 1879 ², 271) وكتاب بروكلمان في آداب العرب (Brockelmann: *Gesch. d. arab. Litter.*, I, 230) ولاسيَّما مقدَّمة الدكتور دي غوي على القسم الرابع من مجموع جغرافيي العرب

ومما يستحبُّهُ القارئ فوق ذلك في مطالعة تاليف المقدسيّ حرصهُ على سياق الاخبار وتنسيق الاوصاف فترى الابواب متواصلة على احسن طريقة واضبط اسلوب لا يفارقه همّه في النظام وترتيب الموادّ على خلاف ما ترى في كُتب من تقدَّمهُ . مثال ذلك انهُ في كلامهِ عن كورة قنَّسرين جعل قصبتها حلب . وقد احسَّ بان القارئ يعترض عليهِ في ذلك فسبق بالردّ على اعتراضهِ بما حرفهُ (ص ١٥٦) :

« فان قال قائل : لِمَ جعلتَ قصبة الكورة حلب وهيَ مدينة على اسمها . قيل لهُ : قد قلنا ان مثل القصبات كالقوّاد والمدن كالجند ولا يجوز ان تُجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجميع الدواوين اليها وانطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها اجنادًا لمدينة خربة صغيرة . فان قال : هلَّا استعملتَ هذا القياس في شيراز فاضفتَ اليها اصطخر ومدنها . قيل : لمَّا وجدنا باصطخر مدنًا احدقت بها وتباعدت عنها استحسنَّا ما فعلناهُ ثمَّ والاستحسان في علمنا هذا ربَّما غلب القياس

وهي لعمري خطَّة محمودة أن لا يصف الكاتب الَّا ما رآهُ عياناً وعليها جرى المقدسيّ فزاد في اعتبارنا مقاماً . وكذلك تراهُ ينبِّه القارئ اذا ما احتاج الى وصف شيء لم يعاينهُ . مثال ذلك قولهُ (ص ١٢) عن اليمن : « امَّا طريق اليمن فلا اكاد اضبط مراحلها كغيرها من الكور غير اني اذكر ما عرفتُ واجمل ما سمعتُ »

امَّا طبعة هذا الكتاب فحسبُنا القول بان الذي تولَّى امرها انَّما هو احد افاضل المستشرقين العلَّامة دي غوي . وكان طبعها اوَّلًا سنة ١٨٧٧ ثم نفدت هذه الطبعة بعد مدَّة فاضطرَّ جناب ناشرها الى اعادة طبعها فانجز العمل في السنة المنصرمة . وفي ذلك دليل واضح على اقبال العلماء على هذا الكتاب وقلَّما تجد كتاباً علميًّا عربيًّا يحتاج الى طبعتين . ومن محاسن هذه الطبعة المستحدثة انَّ صاحبها اثبت فيها عدَّة فوائد جديدة استفادها من درسهِ الخاصّ ومن ملحوظات العلماء فجاءت هذه الطبعة الثانية غاية في الحسن سواء كان لضبط المتن (١ او لدقَّة الحواشي التي علَّقها في ذيل كل صفحة من الكتاب . فيا ليت ادباء الشرق يحذونهُ في طبعهم للتآليف القديمة حذو المستشرقين في طبعاتهم فيخدموا العلم كما فعل ناشر جغرافيَّة المقدسيّ

ولكن دعنا الآن نواصل بحثنا في التأليف الذي نحن بصددهِ

---

١) قد ضبط جناب الدكتور اسم سَلَمِيَّة بلدة شرقيّ حمص بتشديد الياء المثنَّاة وعندنا انَّ الصواب كتابتها بتخفيف الياء كما هو شائع في تلك الجهة